المحاضرة الرابعة

طرائق دراسة اللهجات قديمًا وحديثًا، والصعوبات التي تواجه دارسها.

أولاً: طرائق دراسة اللهجات قديماً وحديثاً.

تتنوَّع دراسة اللهجات وطريقة تناولها إلى ثلاثة أنماط:

١) المنحى العربي القديم:

لم يكن القدماء يهتمون بلهجات العربية[١] ، على وفرتهم واهتمامهم بدراسة كل دقائق اللغة ، فهي لم تحظَ ببعض ما حظيت به الفصحى من تدوين ودراسة خوفًا على الفصحى من أن تُضار بدراسة لهجةٍ ما ، ولأنَّ اهتمامهم الأساسي بالفصحى التي تضمن الوحدة العربية ، وإن كانت لهم إشارات مبعثرة في أثناء كتب اللغة والأدب والقراءات والتفسير والحديث والنحو ، فمثلًا النحاة كان هذا العمل ثانويًا خارجًا عن نطاق هدفه الذي ينشده ، وهو جمع قواعد اللغة الفصحى المشتركة وتنظيمها ، ولذا لم يكن يهمهم عزو اللهجة الى قبيلة ، او التصريح بأصحابها من العرب إذا ما تطرقوا اليها كثيرًا ، فالعزو كان قليلًا والإهمال كثيرًا[٢].

ولم نعرف عالمًا من علماء العربية عُنِيَ باللهجات القديمة وأَلَّفَ كتابًا تخصَّصَ بدراسة تلك اللهجات غير أنَّ كتب التراجم تذكر أنَّ عددًا من العلماء اللغويين قد كتبوا مؤلفات أطلقوا عليها عنوان كتاب (اللغات)[٣].

---

(١) حظيت دراسة اللهجات لدى القُدامى بنصيب ، إلَّا أنَّها لم تكن في جهودهم مقصودة لذاتها غالبًا ، بل كانت تأتي عَرَضًا في كتبهم على نحو ما نجد في المعجمات وكتب اللغة والأدب والقراءات...وغير ذلك.

(٢) أمَّا النحاة المتأخرون فكان لهم اهتمام باللهجات كابن مالك وشُرَّاح كتبه ، والإستراباذي ، وأبي حيَّان ، والسيوطي في مؤلفاتهم النحوية.

(٣) لم يصل منها شيء إلى الآن ، وسيأتي الكلام عليها في مبحث: مصادر دراسة اللهجات العربية القديمة.

٢) الدراسات التي تناولت اللهجات القديمة:

إنَّ الاتجاه الحديث في دراسة اللهجات القديمة ينقسم اجمالًا على قسمين

الأول: دراسات تناولت كل منها لهجة واحدة لقبيلة بعينها من الجوانب الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية[٤].

والآخر: دراسات تناولت اللهجات العربية عامة[٥].

وفي كلا الاتجاهين يقوم الباحث بجمع كل ما يمكنه من ظواهر تلك اللهجة لقبيلة بعينها أو لمجموعة قبائل كثيرة مما احتفظت بها كتب التراث ، ويُقدِّم دراسة تاريخية وجغرافية واجتماعية عن أصحابها ، ويُحلِّل مادتها اللغوية ، ويصنفها الى عناصرها، ويدرسها من كل جوانبها ، ويجتهد في الكشف عن العوامل التي أثَّرت فيها، واستنباط القوانين التي خضعت لها.

(٤) مثل: لغة تميم: دراسة تاريخية وصفية ، لضاحي عبد الباقي ، ولغة طيِّئ أثرها في العربية: دراسة تاريخية وصفية تفسيرية ، لعبدالفتاح محمد ، ولهجة قبيلة أسد ، لعلي ناصر غالب...وغيرها كثير تقدَّم ذكرها في مبحث: روافد للبحث في اللهجات وما يتعلَّق بها ، فراجعه إن شئت.

(٥) مثل: في اللهجات العربية ، لإبراهيم أنيس ، واللهجات العربية في التراث ، لأحمد علم الدين الجندي ، والعربية ولهجاتها لعبد الرحمان أيوب...وغيرها كثير تقدَّم ذكرها.

٣) الدراسات التي تناولت اللهجات الحديثة:

في العصر الحديث ظهرت الدعوة لدراسة اللهجات العامية في الغرب ، وقد كانت بداية الدعوة مقصورة على اللهجات المُتَفرِّعة من لغاتهم ، ثم انتقلت الدعوة المتكورة لتشمل اللهجات العربية الحديثة فأدخل الأوربيون تدريس اللهجات العربية المحلية في مدارسهم و جامعاتهم لتساير المد الاستعماري ، مُستعينين بذلك بالمستشرقين المتخصصين بدراسة اللهجات .

وقد درس هؤلاء المستشرقون العاميَّات العربية في جامعاتهم كإيطاليا وفرنسا والنمسا وروسيا وألمانيا والمجر وإنجلترا وقد ساير حركة تعليم العاميات العربية إصدار كتب لهؤلاء المستشرقين في اللهجات الحديثة مثل : أصول اللغة العربية العامية والفصحى للمستشرق الفرنسي دي سفاري ، وقواعد العربية العامية في مصر للمستشرق الألماني ولهلم سبيتاط ، ولغة بيروت العامية للمستشرق الفرنسي أمانويل مانسون ...وغيرها[٦]. بل كان من مظاهر اهتمامهم بدراسة تلك اللهجات أن عيَّنوا مدرِّسين عرب في الجامعات الأوربية لتدريس اللهجات العربية والتأليف فيها ، مثل إلياس بقطر أول مدرس شغل كرسي العربية العامية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس سنه ١٨٢٠م وغيره[٧].

([٦]) تقدَّمَ ذكر عدد منها في مبحث: روافد للبحث في اللهجات وما يتعلَّق بها.

([٧]) يُنظَر: كتاب الفصحى ونظرية الفكر العامي ٣١_٣٥ ، وكتاب اللَّحْن في اللغة العربية ليوسف المطوَّع ٥١.
تنبيه: سيأتي الحديث عن اللهجات العربية الحديثة في مبحث خاص ، وبيان التجاذب في دراستها بين القبول والرفض.

ثانياً: الصعوبات في دراسة اللهجات العربية القديمة.

يُمكن تلخيصها على النحو الآتي:

١. انصراف العلماء عن تسجيل اللهجات القديمة وأصواتها ، وما روي منها لم يتعدَّ الملاحظات العابرة في أشتاء كتب التفسير والقراءات والأدب والمعجمات... ونحو ذلك.
فلم تُعنَ الدراسات القديمة عناية جادة باللهجات العربية القديمة، وما ورد عنهم في هذا المجال لا يعطي صورة كاملة عن اللهجات بكل تفاصيلها.
٢. وردت كثير من اللهجات غير معزوة إلى قبائلها ، واكتفاؤهم بعبارة (هي لغة) ونحو ذلك.
٣. عدم وجود رموز كافية لتسجيل دقيق لبعض الظواهر الصوتية كالإمالة والإشمام ... ونحوهما.
٤. عدم الدِّقة في جمع المادة اللهجية ، واختلاطها بالعربية الأدبية ولا سيما في المعجمات العربية.
٥. تسرُّب الوهم والخطأ والتصحيف والتحريف إلى بعض ما جُمِعَ من مادة اللهجات.
٦. تناثر مادة اللهجات في مصادر متنوعة ولدى تخصصات مختلفة ، وعدم جمعها في كتاب واحد ، مما يتطلب تصفح جميع المؤلفات السابقة.

٧.عدَّهم لهجة قريش أفصح اللهجات ، جعلهم يخلعون على اللهجات الأخرى أوصافًا مثل: لهجة فصيحة ، أو قبيحة ، أو ضعيفة ، أو رديئة ، أو شاذة... أو نحو ذلك. فهُم لم يولوا عنايتهم إلا بلهجة قريش ، فباقي اللهجات لم يعطوها ما تستحق من الدراسة والعناية بها.